هيفاء البشير.. سيدة المصباح الأردني

سحر ملص [1]

في كل مرةٍ أقف مع ذاتي وأنظر في مرآة السيدة هيفاء البشير لأبحث عن مكنونات نفسها ودافعها في الحياة لتسطر هذه السيرة العطرة الطيبة، أجد بأنَّ كل الدوافع والمؤشرات تشير إلى معدنها النفيس المجبول بالطيبة والإنسانية؛ إذ تبدو جذور هذه الشخصية راسخة في أعماق الطفولة، وحين نراها كلما تلقّت طعنة من القدر ازدادت همةً وعنادًا وصلابة، بالرغم من انثنائها على جُرحها، بل جراحها الكثيرة.

إنها الهيفاء تلك التي ولدتها مدينة جبل النار.. عمدتها بمياه نبع القريون وعين العسل، ملأت قلبها بالمحبة، فالطفلة اليتيمة التي فقدت والدها صغيرة، امتلأت حياتها بالجدية والعمل المثمر، فهي من منبت طيب جعل من أمها وأخيها حضن الحنان الذي احتواها.

لكنَّ الطفلة مسكونّةٌ بالخير وحب العمل؛ إذ نرى ملامح ذلك في طفولتها حين كانت تقوم بجمع التبرعات للطالبات الأقل حظًّا في المدرسة، فكيف لهذا القلب الصغير الذي تفتَّحت براعمه على الحياة ألّا يرأف بمن حُرموا نعمة المال؟!

طفلة تعيش ما بين الحلم والواقع لتصنع أسطورة حياتها، فما بين الغيم كانت تخبئ أحلامها، وتحت قرص الشمس تسطّر خطواتها، وفي قلبها عزيمةٌ وإرادةٌ تشبه في صلابتها صخر الصوان.

ربما كان للقدر يدٌ ترسم لنا بعضًا من سطور حياتنا القادمة، فالطفلة التي كانت دربها طويلة ما بين البيت والمدرسة تختصره عبر مرورها في المقبرة التي تُلقي على موتاها

(1) المستشارة الثقافية في منتدى الرواد الكبار.

السلام، وتستقي عبرة من قِصَر الحياة ومصير الإنسان، وحين تنتهي المقبرة وتتابع سيرها يتمثل لها ذاك الرجل الأبيض الذي يرتدي ملابسه البيضاء وحذاءه، ويمتطي فرسًا شهباء حاملًا مظلته التي تشبه غيمةً في بياضها.

كلُّ ذلك يرسم في وجدان الطفلة حكمةً مفادها أنَّ رحلة الحياة قصيرة والعمل يجب أن يكون ناصع البياض؛ إذ إنَّ لوحة الخلود لا تقبل على صفحتها إلا قلوبًا وهممًا بيضاء.

وتمضي الحياة لتستمر التحديات، فمن موت الأب إلى الدراسة والانتقال إلى دار المعلمات في القدس، لتأتي ضربة قرار التقسيم لفلسطين.

كلها محطاتٌ من الألم تصهر معدنها وتُذكي شعلة العزم فيها، وتفتح نوافذ الوعي على ما يجري في الحياة لتقسمَ ما بينها أن تحوّل الآلام إلى آمال والصخر إلى تبر.

فنجدها فتاةً ناضجة واعية تنضمُّ إلى حزب البعث بتشجيع من أخيها وتقوم بالتدريس في المدارس، وتبدأ بالكتابة تحت اسم مستعار في الصحف «فتاة عيبال».

هذه الشخصية المميزة ساهمت في لفت الأنظار، وجعلت من الدكتور محمد البشير ابن السلط الشماء الذي كان يبحث عن فتاة ناضجة تشاطره الحياة، يخطبها ويقترن بها، لتقطع النهر وتأتي إلى جبال السلط مُقسمة أن تخطَّ على جبالها أجمل قصة حب وعطاء.

وتنهمك في إدارة شؤون أسرتها، إضافةً إلى انخراطها في سلك التعليم كأول امرأة متزوجة في الأردن، ويتقلّب زوجها في العديد من المناصب، من مديرٍ للصحة إلى وزير، وتبدأ رحلة العمل المشتركة في تشجيعها على تأسيس جمعية الأَسرّة البيضاء لمساندة المستشفيات وتشجيع الفتيات على الانخراط في سلك التمريض.

وتمضي في مسيرتها حاملة على عاتقها فتح درب التمريض أمام الفتيات ومساعدة كبار السن وإيوائهم، لتأتي الضربة الثانية باستشهاد زوجها الدكتور محمد البشير، لتقف وحيدةً بلا معين تنثني مرة أخرى على جرحها، ثم ترفع رأسها على صوت أبنائها الستة يستنجدون بها كي تظلَّ سندًا راسخًا يتكؤون عليه في الحياة.

لتصغي إلى صرخة مُسِنٍّ يحتاج إلى عونها، فتدوس على جراحها الشخصية وتمضي قدمًا ملبيةً حاجات الآخرين ممن يحتاجونها، متناسيةً آلامها النفسية حاملةً مصباح الأمل لتضيء درب الآخرين، وتذكّرنا بالممرضة فلورنس نايتنجيل أول من وضعت أسس علم التمريض الحديث، وساعدت في حرب القرم حاملة مصباحها وسط الجرحى ليشعَّ نورًا عبر العالم.

إنَّ المتتبع لسيرة هذه السيدة لَيَتوقف عند عددٍ من الميزات الهامة في شخصيتها وكانت أركانًا لدعم مسيرتها؛ فمنذ البداية نجد جذور حب الخير ومساعدة الآخرين سواء من خلال جمع التبرعات المدرسية أو تأليف المسرحيات وتمثيلها ودفع ريعها لأعمال الخير.

كما نلاحظ أنَّ شجاعتها وتصميمها على التحاقها بالمدرسة العائشية بعيدًا عن حضن أمها دليلٌ واضحٌ على ما تتمتع به من الوعي وبُعد النظر، إذ نراها منذ شبابها قد انخرطت في حزب البعث وراحت تكتب في الصحف.

عندما قطعت النهر وأتت إلى السلط ذابت شخصيتها في مجتمعها الجديد ومنحته حبًّا؛ فهي المُدرّسة هناك وهي مُؤسسة جمعية الأَسرّة البيضاء في عمان، لذلك نراها دائمًا سبّاقةً تنظر إلى المستقبل، تستشرف ما فيه ثم تنظر إلى أجمل أشجاره المثمرة، فتأخذ بذورها وتزرعها في الحاضر، إلى جانب ذلك كله تستند إلى العلم والمنطق، فهي لا تسير بخطوات عشوائية وإنما تستقي الخبرة والمعرفة ممن سبقوها وتبني على ذلك وتزيد، لذلك بدأت بتشييد دار الضيافة للمسنين حيث سافرت مع وفد إلى أوروبا واطَّلعت على الدُّور المشابهة له، لتستفيد من الخبرة والتجربة. ولئن جاءت خدمة المسنين بإيعاز من دولة الرئيس وصفي التل فإن منتدى الرواد الكبار جاء استكمالًا لرسالتها ورسالة الجمعية في خدمة ورعاية كبار السن من القاطنين في بيوتهم، بعدما أنهوا رسالتهم في الحياة وباتوا يتكؤون على مساند الوقت، لذلك كان لا بدَّ من إيجاد نادٍ يجمعهم ويوفِّر لهم جوًا اجتماعيًّا وعائليًّا

وثقافيًّا، خاصةً أنَّ شيخوختهم قد امتلأت بالتجارب والحكمة، ما يعني إمكانية الاستفادة من هذه الخبرة الطويلة.

ويعتبر المنتدى رائدًا في فكرته وعطائه، فقد تأسس عام 2009 لتكون له الريادة في الأردن في تلبية احتياجات كبار السنِّ، إذ إنَّ خدمتهم واجبٌ وطنيٌّ وقِيميٌّ وديني، وقد تأسس ليكون ناديًا نهاريًّا يلتقي فيه الكبار مع أندادهم ليستمتعوا بأنشطةٍ اجتماعيةٍ ملائمة ثقافية وتوعوية وبرامج صحيّة وترفيهية ورحلات وطنية وخارجية.

وقد اعتمد المنتدى على وضع خطَّةٍ نصف سنوية تشتمل على جميع أنشطته الثقافية والاجتماعية والترفيهية، فيكون لدى العضو برنامجٌ يملأ حياته بكل ما هو مفيدٌ وثري.

وقد اهتمَّ المنتدى بإبداع أعضائه والنشاطات المتعددة، فكان أن أصدر مجلة الشرفة الثقافية الفصلية، لكنّها توقفت لعدم وجود تمويل لها.

وفي كلِّ عامٍ يُصدر كتابًا سنويًّا يشتمل على جميع نشاطاته المختلفة، ولا ننسى أبدًا فضل مديره السابق الشاعر عبدالله رضوان -رحمه الله- الذي أرسى دعائم البرنامج الثقافي فيه، ثم تابعنا على خطاه وجدّدنا، ولقد أصبح المنتدى بفضل الله منبرًا ثقافيًّا مميزًا، من خلال استضافته لعددٍ من الأدباء المحليين والعرب ضمن برامجه المختلفة، ورسّخ وسجَّل لعددٍ من شخصيات الأردن ورجالاته من خلال برنامج ذاكرة إنسان، وقام بعددٍ من اللقاءات والحوارات، وطرح العديد من المشاكل في حياتنا اليومية ضمن برنامج حوار الأجيال الذي يقدمه الأستاذ عصام الزواوي، وعمل على ترسيخ الهوية الوطنية من خلال برامجه المفيدة والمتعددة، مثل برنامج «ذاكرة مكان»، التي تكون إمّا بطواف أعضائه في مدن وقرى الأردن المختلفة أو استضافة من يتحدث عنها في المنتدى.

كما وضع المنتدى خطةً لاستضافة الرموز الثقافية من الأدباء والفنانين في مختلف مدن المملكة ضمن برنامج «أصالة مدينة»، للتعريف بهم والتعريف بتاريخ وتراث المدن، كما

أقام العديد من الأمسيات الأدبية الشعرية والقصصية وتوقيع الكتب من الإصدارات الجديدة.

وأقام أيضًا العديد من الملتقيات الثقافية مثل: ملتقى القصة القصيرة جدًّا، وملتقى قصيدة النثر بالتعاون مع جامعة فيلادلفيا، وملتقى القصة القصيرة، وهناك نشاطات ترفيهية تقام باستمرار، سواء الرحلات الداخلية أو الخارجية، كلُّ ذلك يجعل من حياة العضو حياةً فاعلة ثرية ثقافيًّا ومعرفيًّا.

وقد أُقيمت فيه العديد من المعارض الفنية لكبار الفنانين العرب والمحليين، وقام الأعضاء بزياراتٍ لعددٍ من بيوت الفنانين، ومما يحفز الأعضاء على العمل ومشاركتهم الفعلية في اللجان المختلفة في المنتدى مثل اللجنة الثقافية والاجتماعية والفنية.

ويضمُّ المنتدى قاعةً كبيرة للندوات ومكتبة وصالةً للمعارض الفنية وكفيتريا لتقديم الوجبات الخفيفة، كما يضمُّ حديقةً غنَّاء تقام فيها العديد من الأمسيات والسهرات الموسيقية والنشاطات المختلفة.

وفي العادة عندما يصل الإنسان إلى سنٍّ معينة يتوقف عن العطاء، لكنْ، هل تتوقف المشاريع والعطاء عند هذه السيدة المتجددة؟!

لقد أرادت أن تتوِّج مشاريعها بقمة الجمال وجوهرة العطاء، إذ إنها المرأة التي حفنت من تراب الضفتين حفنةً ضمتها إلى صدرها، وبذرت البذور التي أنبتت هنا وهناك، فقد شاهدت بأمّ عينها الاحتفاء بالزيِّ التراثي الفلسطيني، وكيف صار نجمة تتلألأ في فضاءات الكرة الأرضية لتحدّث عن هذا الشعب الخالد، فقررت أن تقوم بخطوة توأمية مشابهة وذلك من خلال إقامة متحف فني توثيقي للأزياء والحلي الأردنية الشعبية، أطلقت عليه اسم «رواقنا خزانة ذاكرتنا الجميلة» ليكون حافظةً لإحدى أهمِّ مكونات الهوية الشعبية والوطنية الأردنية وهي الملابس والإكسسوارات، لذلك وكعادتها، شكّلت فريقًا للعمل من المتطوعين ووضعت خطةً لجمع هذه الأثواب، فحلّق أفراد طاقم العمل هذا مثل طيور في

سماء الأردن، بحثًا عن كل ما هو قديمٌ وثمينٌ يمثِّل الأردن وتاريخه العريق، وليكون وسيلة معرفة واستثمار يدعم رعاية كبار السن.

وقد وضعت نصب عينيها أن يكون رافدًا إضافيًّا بمقتنياته ومنتجه الإعلامي والترويجي للسياحة محليًّا، ويكون وسيلة معرفية لزواره من طلبة المدارس والجامعات.

ولقد أخذت على عاتقها أن يكون متحف رواقنا المكان الذي يضمُّ أهم مفردات الهوية والحياة الأردنية من ملابس وحلي وإكسسوارات تمثِّل كافة الحقب الزمنية المعاصرة، بحيث تحكيه إنسانًا ومكانًا وحدثًا، عن طريق تقديم جرعة معرفية للزائر من خلال وسائل وتقنيات حديثة تطرح الحكاية وتعرض الصورة وتجسّد الزي الخاص بالمكان، كما حرصت على أن يقوم فريقٌ خاص بالتصوير والإخراج والطواف على مدن الأردن وقراه لأخذ لقطات من مناطق الأردن المختلفة، كما تبرز جمالها وأصالتها مقترنًا ذلك بالغناء واستعراضات الفرق الشعبية وجمال الأمكنة الطبيعية والآثار.

وقد تمَّ بناء المتحف وجمع المقتنيات، وبات قاب قوسين من الهيكلة الكاملة ليتمَّ افتتاحه بإذن الله تزامنًا مع الاحتفالات بمئوية تأسيس المملكة في عام 2021.

في الواقع، هذا غيضٌ من فيض ما تحدّثتُ به عن جزء من المؤسسات التنموية التي فكَّرتْ بإقامتها وخططتْ لها ثم قامت بتنفيذها دون أن تتوقف يومًا أو تخشى عائقًا، أو تتطلع إلى الوراء، فقد تبوأت القمة رغم كلِّ الصعاب والمعّوقات، وسارت في شعاب الليل تحمل مصباحها الذي أضاء درب المرأة، لتكون قدوة لها في عددٍ من المجالات لشقِّ دربها في طريق العمل والعطاء ثم الالتحاق بسلك التمريض، وبالرغم من أنها نذرت نفسها للعمل الإنساني إلا أنها لم تنسَ أبدًا وضع المرأة حين أسست الاتحاد الأردني العام وترأستْه لعقدٍ من الزمن بعد انتخابها، وكان لها العديد من المشاركات الدولية.

وعندما أضاءت المصباح للمهمشين من كبار السن ومن لا مأوى لهم أضاء دار الضيافة للمسنين في الجويدة.

وقد نظرتْ إلى واقع وحال المرضى النفسيين الغارقين في عتمة غياهب النفس ووصمة المجتمع، فقامت بتأسيس مركز الصفصاف الكائن في أحراش ناعور.

وعندما فتحت ذراعيها وقلبها الواسع لجني قمح سنوات المسنين ممن أدوا رسالتهم في الحياة، أسست لهم منتدى الرواد الكبار.

وأرَّقها تعبُ المرضى ومعاناتهم، فترأست الائتلاف الصحيّ لحماية المريض، وتوَّجت أعمالها بجوهرة الحب والجمال والانتماء الوطني، فجاء «رواقنا».

سيدةٌ كهذه نذرت نفسها للعطاء دون مقابل وتسلقت الشعاب والدروب الصعبة وتمثلت الحديث الشريف «إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلةٌ فليغرسها».

امرأةٌ كهذه، ألا يجدر بنا جميعًا أن نتوّجها على عرش قلوبنا ونطلق عليها لقب «سيدة المصباح الأردني»، لا بل تُدرج سيرتها الذاتية ضمن مناهجنا المدرسيّة، لتكون قدوة للفتيات في كفاحها، صبرها، وعطائها.